ظلّت نظرية المحاكاة مسيطرة على الحركة الأدبيّة النقدية الأوربية حتّى أواسط القرن 18 تقريبا وقد شهد في تلك الفترة المجتمع الأوربي تغيّرات جذرية في جميع المجالات الاجتماعية والسيّاسية والاقتصاديّة والثّقافية، حيث ظهرت ثورة جديدة سُمّيت بالبرجوازية التي تجاوزت الإقطاعيّة[[1]](#footnote-1)\* استطاعت أن تقوم بنهضة صناعيّة واقتصاديّة استلزمت نهضة فكريّة وعلميّة واجتماعيّة وثقافيّة لتنقل المجتمع من عصر إلى عصرٍ.

حيث ظهرت فلسفات جديدة وأدب وفنّ جديدين. ونَمَتْ الرّوح الفردية والروح الدّيمقراطيّة حيث كان شعار الثورة الإخاء والمساواة والحريّة، ظهرت المطبعة والصّحف والمكتبات فازدادت قاعدة القرّاء وانتشر التّعليم، وهذا كلّه انعكس على الحياة الدّاخلية للإنسان على عقله وفكره وأحاسيسه ومشاعره وظهر أدب جديد وموضوعات جديدة، وثَارَ الأدباء والشّعراء على القوانين الكلاسيكية والزّخرفة اللّفظية.

كلّ هذا أدّى إلى ظهور نظرية جديدة في الأدب هي نظرية **التّعبير.**

**1/ أسسها الفكريّة والفلسفيّة:**

**أ- الفلسفيّة:** استندت إلى الفلسفة المثاليّة الذّاتية التّي رفضت الآلية وقالت بالديناميكيّة (الاختلاف والتعدّد) التي ترى الوجود الأوّلي للذّات وللوعي الإنساني (الدّاخل) أمّا العالم الموضوعي فمتوقِّف على إدراك مدرِك له. ودون هذا المدرِك يعدّ العالم الموضوعي غير موجود، وما دامت الذّوات تتغير فإنّ كلّا منها تخلق العالم على صورة خاصّة، وهذا يعني أنّ الذّاتي يخلق الموضوعي وأنّ العالم الدّاخلي للذّات العارفة هوّ أساس صورة العالم (الموضوعي) الخارجي، وما دام الأمر كذلك فلابدّ أن يقدّم الشعور والوجدان والعاطفة على العقل والخبرة والتجربة، والفنّ هنا هو تعبير عن الصورة الخاصة للعالم خلقتها الذّات معتمدة الشّعور والوعي العاطفي.

- خلق الذّات لِعَالَمِها الخاص من كمال التّعبير

**ب- الفكرّية:** كان للفرد كامل الحرّية في التّعبير عن آرائه وأفكاره وميوله وعواطفه ومشاعره بغضّ النظر عن انتمائه العائلي (حيث تجاوزوا الإقطاعيّة التي تعترف بالفرد من خلال النّسب والحسب والملكية والجاه).

فصار الفرد حجر الزّاوية في كافة المجالات، وصار الفرد عَالَمًا قائِمًا بِذَاتِه، وجوهره الأصيل هو الحرية.

**كنتيجة فنظريّة التّعبير تعتبر الفّن تعبير عن صورة العالم الخاصّة والتي خلقتها الذّات المبدعة معتمدة على الشّعور والعواطف، وكمال التّعبير الفنيّ.**

**2- أعلام نظرية التعبير:**

**- كانط (1724-1800) وهيجل (1770-1831):** يُعدّان المنظرين الفلسفيين لنظّرية التّعبير وواصفي أسسها الفلسفيّة.

**أ/ كانط:** فَصَلَ بين المعرفة الحسّية والمعرفة العقلية، واعتبر الشّعور طريق المعرفة الحقيقية.

**ب/ هيجل** يرى أنّ الفنّ إدراك خاص للحقيقة وأنّ أداة هذا الإدراك هو الخيال، فالعقل ليس طريق المعرفة الوحيد.

- فالفيلسوفان يهتمّان أساسًا بالمشاعر والخيال.

- استندت نظرّية التّعبير على هذه الفلسفة، وتمثّلت **خطواتها العامّة فيما يلي**:

1. الأدب تعبير عن الذّات، أي تعبير عن العواطف والمشاعر، والقلب هو ضوء الحقيقة وليس العقل.
2. ومهمّة الأدب ووظيفته هيّ إثارة العواطف والانفعالات، فحينّ يكون موضوع هذا الفنّ

والأدب هو الحبّ، فإنّ هذا الموضوع ينبغي أن يثير الحبّ في نفس القارئ.

1. اهتمّت نظرية التّعبير بالأديب الشّاعر أكثر من الأسلوب أو الشّكل، فالشّخصية أهم من الحبكة أو الأحداث (نظرية المحاكاة)، ورأت أنّ الأديب يعيد خلق الحياة من خلال رؤيته الخاصّة.

- اهتم أصحاب هذه النّظرية بتأكيد أنّ الإنسان خيّر بطبعه، كما اهتموا ببيان قيمة الطّبيعة إلى حدّ التّقديس كما هو الحال عند "**وليام ووردزورت**" (1770-1850) و **"وصموئيل تيلور كوليربج**" (1772-1834).

**أ- وليام ووردزورت:** يعدّ الدّيوان الذّي كتبه سنة 1798م بداية لمسارٍ جديد للشّعر، وتعدّ المقدّمة التي كتبها من النّصوص النّقدية الهامّة في تاريخ النّقد الأدبي.

وتتلخّص أبرز أفكارِهِ في:

- التّركيز على شعر الطّبيعة البسيط، «**والشّعر الجيّد هو فيض تلقائي لمشاعر قوّية** » فهوّ ضدّ فكرة الصّنعة في الأدب (نظّرية المحاكاة)، أو التّأليف عن تكلُّف، فالشعور يُضفي أهميّة على العمل لأنّ العقل يُحرّكه الشُّعور **ردا على** (من يقول أين الإرادة والوعي؟)

فالانفعال هوّ الّذي يُوجه السّلوك ويوجّه العقل ولذلك فإنّ الشّعر تعبير عن الانفعال، فلذا يجب أن تكون اللّغة طبيعيّة عادية، لغة الطّبقات الدّنيا وأهل الرّيف، وأنّ هناك تقارب بين لغة الشّعر ولغة النّثر.

- والموضوعات يجب أن تُستمد من الحياة العامة للنّاس الرّيفيين والشّعبيين الذّين لم تفسدهم الحضارة.

- والشّعر عنده معالجة بارعة للمشاعر الإنسانية لهدف صحّة الإنسان العقلية والجسدّية وسعادَتِهِ.

فالشّعر يهدف إلى تنشيط روح الإنسان وجعلِها أكثر ديناميكيّة من خلال تسجيل الحقيقة بشكلٍ مشوّق ومٌمْتِع، وهذا لا يحطُّ من الشّعر كفنّ، بل إنّها معرفة جمال الكون.

**ب- صموئيل تيلور كوليردج:** كان شاعرًا وفيلسوفًا وناقدًا وصاحب نظريّة في الخيال، ألمع اسم في النّقد بعد أرسطو حتى القرن 19.

رفض **كوليردج** فلسفة **كانط** في الخيال، فليس الخيال مجرّد وسيلة لجمع الجزئيات الحسّية المتفرّقة، أي تذكّر شيء أحسسناه من قبل فقد تجرّد من قيود الزّمان والمكان بل هو جمع بين أجزاء أُحِسَّت من قبل لتأليف شيء لم يُحَسّ به، هو خلق جديد، إنّه خلق صورة لم تُوجَدِ وما كان لها أن تُوجد بفضل الحواس وحدها ولا العقل وحدَهُ، وإنّما هو:

صورة تأتي ساعة **تستحيل الحواس والوجدان والعقل كُلًّا واحدًا في الفنّان،** بل كٌلَّا واحدًا في الطّبيعة (لأنّ الطبيعة هي الملهمة) هذا الخيال وحده هوّ الذي يميّز بين الشّعراء العباقرة والشّعراء المتشاعرين.

**لم يلغي العقل والإدراك:** هاتان القوّتان (العقل والإدراك ) تتّحدان في الشّعر أو في الفنّ بواسطة الخيال لإعادة الخلق للوصول إلى الوحدة والمثل.

**- الخيال عند كوليردج:**

هوّ نوعان أوّلي وثانوي، فالخيال الأوّلي هو ذلك الّذي يتمتّع به كلّ النّاس أي هو القوّة الحيوية الّتي تجعل الإدراك الإنساني مُمْكنًا، أمّا الخيال الثّانوي فهوّ الخيال الشّعري الّذي يخصّ الشّعراء فقط، فالشّاعر يُعْطِينا صورة الشّيء كما تخيّلها أو كما تَرَاءَتْ لَهُ.

فإذا كان الخيال الأوّلي يعمل على الكشف عن العلاقة بين الذّات والموضوع المُدْرَك، فإنّ الخيال الثّانوي يعمل على الكشف عن العلاقة الخفيّة بين ذات الشّاعر وكيفيّة تصوّره للأشياء الموجودة في الطّبيعة.

**مثال:** عبارة «أصابع الفجر تمتدّ»[[2]](#footnote-2)\* هي صورة شعريّة متحّركة متآلفة، لكن عناصرها الأساسية (مفرداتّها) الأصابع والفجر في الواقع متنافرة إذ لا توجد في الحياة الواقعيّة أيّة علاقة بين الأصابع والفجر، لكنّها بالشّعور تبدو متآلفة وهذا بعض الخيال الذي يخلق لنا صورة جديدة وتحّطم ذلك التّنافُر.

**- ملاحظات حول نظرية التّعبير:**

* نظرية التّعبير نتاج للثّورة البرجوازية، وفي نفس الوقت ردّ فعل لنظرية المحاكاة التّي تهتمّ بقيمة العقل والمنطق وترك قيمة العواطف والانفعالات.
* قوّة العلاقة بين الأدب والسّيرة: فالأدب نتاج الفرد الخالق والشاعر يكتب عن نفسه وأعمق مشاعره.
* قوة العلاقة بين الأدب وعلم النّفس: إن ظهرت الكثير من الدّراسات التي تربط الأديب بعلم النّفس، وكشف العالم الدّاخلي للإنسان، ويعدّ **كولريدج** ممهّدًا للفرودية.
* ركّزت نظرية التّعبير على الذّاتية المتمثّلة في الأديب وأغفلت الوسط الاجتماعي والسّياسي الّذي يتشكّل في ظلّه الأدب.
* صدرت نظرية التّعبير عن الفكر المثالي الّذي لم يلغ العقل لكنّه وضعه في تناقض مع الوجدان. وألح بأنّ المعرفة الحقّة إنّما هي المعرفة الوجدانية وما دام الأصيل في الإنسان هو وجدانه فإنّ الأصيل في الفن والأدب هو ما عبّر عن هذا الوجدان.

**- مقارنة بين نظرية التعبير ونظرية المحاكاة:**

|  |  |
| --- | --- |
| **نظرية المحاكاة** | **نظرية التعبير** |
| تستند إلى الفلسفة المثالية الموضوعية | تستند إلى الفلسفة المثالية الذاتية |
| تضع قواعد وقوانين وتعليمات | حرية التعبير |
| القيمة للعقل | القيمة للعواطف والانفعالات |
| الطبيعة مزيفة أو ناقصة | الطبيعة أعظم الشعراء |
| الأدب موضوعي | الأدب ذاتي وفردي |
| الأديب هو الأقدر على المحاكاة | الأديب هو الأقدر على التعبير |
| ما يولد الأدب هو الإلهام أو غريزة المحاكاة | ما يولد الأدب هو الانفعال أو الخيال |
| ظهرت في عصر الإقطاع | ظهرت في عصر البرجوازية |

1. - الإقطاعيّة: أوربا في العصور المظلمة قرن 9←ق17. النظام العسكري هو السّائد السلطان (الملك) هو من يتصرّف.\* [↑](#footnote-ref-1)
2. \* - أصابع الفجر تمتد: تصوّر الشّاعر لشروق الشّمس. [↑](#footnote-ref-2)